نسق التمييز الجنوسي ضد المرأة في الخطاب التربوي العراقي المعاصر

الباحثة. مريم محمد خلف

أ.م.د. علي هادي حسن حسين

جامعة كركوك / كلية التربية للعلوم الإنسانية

esam22030@uokirkuk.edu.iq

الملخص:

يتناول البحث موضوعة التمييز الجنسوي في الخطاب التربوي العراقي المعاصر، في نتاج الناقد العراقي عبد العظيم رهيف السلطاني، إذ يفحص الناقد الكتب والمقررات الدراسة (كتب القراءة والمطالعة والنصوص) في مرحلة الابتدائية والمتوسطة والاعدادية، من خلال اللغة والصور والرسوم والخطابات الموجهة إلى الطلبة فيجد أنها تميز بين الذكر والأنثى ، وتعامل المرأة معاملة تهميش، ويركز على اللغة الأدبية وما بثه المؤلفون من أشعار وحكايات تراثية تحمل نسق التمييز ضد الأنثى. ويدعو السلطاني إلى ضرورة متابعة الأمر لما يحمله من خطورة تؤثر في لا وعي الطلبة وترسخ أنساق التمييز بين الرجل والمرأة وهذا ما لا يتوافق مع انفتاح المجتمع العراقي وما يشهده العالم مت تطور وتقدم.

الكلمات المفتاحية: (نسق، عبدالعظيم السلطاني، النقد الثقافي).

The pattern of gender discrimination against women in contemporary Iraqi educational discourse

Maryam Mohammad Khalaf

Asst. Prof. Dr. Ali Hadi Hassan Hussein

Kirkuk University / College of Education for Human Sciences

esam22030@uokirkuk.edu.iq

Abstract:

The research deals with the issue of sexual discrimination in contemporary Iraqi educational discourse, in the work of the Iraqi critic Abd al-Azim Raheef al-Sultani. The

critic examines books and study curricula (reading and reading books and texts in the primary, middle and preparatory stages, through language, pictures, drawings and letters addressed to students, and finds that they distinguish between... Male and female, and women are treated as marginalized, and it focuses on the literary language and the poetry and traditional stories broadcast by the authors that bear the pattern of discrimination against the female. Al-Sultani calls for the need to follow up on the matter because of the danger it carries that affects the students' unconsciousness and entrenches patterns of discrimination between men and women, and this is not compatible. With the openness of Iraqi society and the development and progress the world is witnessing.

Keywords: (format, Abdul Azim Al-Sultani, cultural criticism)

المقدمة:

ثقافياً اهتم السلطاني بموضوعة التمييز الجنوسي ضد المرأة، وأراد تسليط ضوء النقد الثقافي عليها. واختار لدرس هذه الموضوعة المقررات التي وضعتها وزارة التربية في العراق. وهذه المقررات هي كتب يدرسها الطلبة في مختلف مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية. ولأنها موضوعة ثقافية كانت عيّنته الخاصة بالفحص والتحليل الكتب التي يمكن أن تتجسّد فيها تلك الموضوعة الثقافية. لذا وظّف آليات النقد الثقافي على الخطاب التربوي العراقي المعاصر، من خلال فحص وتحليل نصوص الكتب ذات البعد الثقافي والأدبي، المقررة في وزارة التربية العراقية. لأنّ هذه الكتب- بحسب تصوّر الناقد- توفّر أفضل فرصة لدرس طبيعة هذا الخطاب. لأن التدريس في المدارس العراقية في تاريخ الدرس ذاك كان الكتاب[١]. وهي كتب القراءة وكتب المطالعة والأدب. لذا أخضع تسعة عشر كتاباً، مقرراً من قبل وزارة التربية العراقية. وعني بتحليل مجمل النصوص الواردة في تلك الكتب، مثل (النصوص الأدبية، مقدمات الكتب، صياغات الأسئلة التي يوجهها مؤلفو الكتب. وركز على النصوص ذات البعد

الثقافي والأدبي في كتب القراءة في المرحلة الابتدائية مثل المحفوظات والأناشيد، وكتب والمطالعة والنصوص في المرحلة الثانوية، فهي وإن كانت كتبا للتعليم فهي كذلك تحمل ثقافة وتنشر الثقافة، وهي " تُنفّذ استراتيجيات تربوية معلنة في وزارة التربية، مثلما تُنفّذ استراتيجيات ثقافية (معلنة أو غير معلنة) وجّهت مؤلفي تلك الكتب. وهذا يعني أنّها مدوّنات ذات امتدادات ثقافية متنوّعة، فهي ترتبط بخطوط موصلة بطبيعة البنية الذهنية الثقافية لمؤلفي تلك الكتب بوصفهم أفراداً يحملون ثقافة، مثلما ترتبط بخطوط موصلة بطبيعة البنية الذهنية الثقافية لمصممي الاستراتيجيات التربوية في وزارة التربية، وهي مرتبطة أيضاً بالبنية الذهنية الثقافية لمؤلفي النصوص الأصلية التي اختارها مؤلفو تلك الكتب، وأخيرا هي مرتبطة بمجمل طبيعة ثقافة المجتمع، إذ الثقافة مؤلف مساهم في التأليف"[٢]. وهذه رؤية شمولية يحدّها السلطاني، تجد أن النقد الثقافي يتعامل مع المنجزات على أنّها منجزات ثقافية. ويعطي مبررا لاختيار هذه العيّنة للتحليل. وهي فعلا حقل خصب لو خضع للتحليل. ويلاحظ أنّها عيّنة واسعة بحاجة إلى جهود مضنية لتحليلها تحليلا ثقافيا. وهذا يبيّن مدى جدّية الناقد وإحساسه بالمسؤولية تجاه الثقافة لاسيّما في التعليم.

ونجد السلطاني في تحليله الثقافي ودرسه للخطاب التربوي قد أفاد من مساحة التحوّل في مجال النقد الثقافي على ما يمكن أن يقدمه هذا النقد من إمكانات كبيرة في تفكيك الظواهر الثقافية وبُناها في عصر ما بعد الحداثة الذي أثر فيه بشكل كبير. ففي ظلّه، يتمكن السلطاني من دراسة كل العلامات الثقافية، التي تمثّلت في أسماء مؤلفي الكتب أو صور ورسوم أو نصوص أدبية أو طبيعة الأسئلة التي وردت في تلك الكتب... فهذه كلّها علامات تحمل رسائل ثقافية، فيما لو نظرنا إليها مستفيدين من منجزات علوم السيمياء والتأويل.

لم يقتصر اشتغال السلطاني في النقد الثقافي على النصوص الجمالية فحسب، بل أنه ترصّد الثقافة وكيف تفعل فعلها في مختلف الخطابات. بل نجده يعترض على من يقصر دائرة اشتغال النقد

الثقافي على النصوص الجمالية. قائلا بجدوى درس أيّة علامة يمكن أن تعبّر عن ثقافة، ويمكن أن نصل من خلال الدرس إلى نتيجة "حين تُدرس العلامة برؤية نسقية وفي سياقها الثقافي والتاريخي والجغرافي. وهذا يشرح بجلاء ووضوح ما ذهبت إليه من اعتراض على مَنْ يَقْصُر وجود الأنساق الثقافية على المتون الجمالية وحدها"(٣) فهو درس العلامات الثقافية التي تجلت في النصوص الأدبية، والصور والرسومات، ولغة الخطاب، في هذه الكتب المدرسية، الصادرة عن مؤسسة التربوية الرسمية. فهذه المؤسسة لها رؤية ثقافية، تستمدها من المعايير الاجتماعية ومن الأيدولوجيات الحاكمة للأفراد، إذ لا يمكن أن تكون هناك رؤية وأهداف لمؤسسة رسمية، بعيدة عن توجهات الدولة العامة. وهذا حال المؤسسة التربوية في أي بلد، ولأن مشروع الدراسات الثقافية والنقد الثقافي كان من بين غاياته أنّه جاء لإنصاف الآخر من الظلم الذي لحق به، وجعله هامشاً وتابعاً عن طريق الثقافة، وبما أن قضايا المرأة وتهميشها، قضايا ثقافية عالمية أزلية رغم خطوات المجتمعات نحو التمدن والتطور؛ لذا جاءت دراسة السلطاني لغاية الكشف عن نسق تهميش (المرأة) إذ ظلت أصواتٌ تنادي بمظلومية المرأة إلى اليوم. وبما أن المرأة محور هذه الدراسة، وهي دراسة ثقافية فقد تشكّلت من نقاط الالتقاء بين فعاليتين مهمتين من فعاليات نقد ما بعد الحداثة، هما النقد الثقافي والنقد النسوي. إذ كلاهما يحفر في النصوص ليكشف التهميش ضد الآخر. على الرغم من كون النقد النسوي يُعدّ فرعا من فروع النقد الثقافي. فمادة البحث هي الثقافة في كلا المنهجين، إلا إنّ النقد النسوي يسلط الضوء على قضايا المرأة خاصة. "إذ ركزت دراسات النقد الثقافي على فهم علاقة المرأة بالمجتمع والرجل، وتحديد مواطن الهيمنة وآليات التخاطب الثقافي الصادرة نحو المرأة ومنها، بوصفها آخراً مقموعاً أو متحوّلاً من الهامشية نحو المركز، ولعل هذا التواشج بين النسوية والنقد الثقافي قد تم مع بدايات ظهور النقد الثقافي"(٤) فالسلطاني يفصح عن متنٍ ثقافيٍ يضمر أمراضاً ثقافيةً، ويكشف النسق الذي يكرّس علاقاتٍ مختلةٍ بين الرجل والمرأة، وبجرأة حداثية وعدّة ثقافية منوّعة ومتماسكة يبحث وجود المرأة ثقافياً عبر الخطاب التربوي العراقي المعاصر. إذ شكل خروج المرأة من البيت، وتواجدها في المؤسسات

الاجتماعية (التربوية، السياسية، الاقتصادية، ...) لمشاركة الرجل وللتعبير عن ذاتها موضوعاً مهما وبشكل كبير. حين يتم النظر إليه عبر المنظور الثقافي للمجتمع وما يحمله من عادات وتقاليد وأحكام وسياسات متحكمة ولها سلطة. فهو من الموضوعات الشائكة بالغة التعقيد. فمشاركة المرأة في الأدوار القيادية كانت ومازالت مرهونة بظروف المجتمع الذي تعيش فيه، حيث تتوقف درجة هذه المشاركة على مقدار ما يتمتع به المجتمع من حرية وديمقراطية من الناحية السياسية، وعلى ما يمنحه المجتمع من حريات اجتماعية للمرأة لممارسة هذا الدور.[٥] لهذا جاءت الدراسة كاشفة عن مقدار التحديات الثقافية، وتشابك القيم الثقافية التي تميّز بين الرجل والمرأة اجتماعياً.

ولأن هذه الدراسة تبحث عن رؤية المرأة ومكانتها الثقافية في المجتمع، التي تعتبر أحد منطلقات النقد النسوي الذي يهتم بالمسائل المرتبطة برؤية المرأة للعالم، وصورة المرأة في الأعمال الإبداعية المختلفة كما أهتم بدراسة أدوار المرأة في الحياة، وفي علاقتها التفاعلية بالمجتمع والعمل ومسائل الحياة والتعليم...، كما أهتم بدراسة وعي المرأة فيما يتعلق بوجودها الإنساني، وبالتالي يعتبر نوعاً من النقد الثقافي[٦] ونجد دراسة السلطاني دراسة ثقافية تستفيد من رؤية النقد النسوي غير المتطرف. إذ يبحث وجود المرأة ثقافياً عن طريق توظيف فكرة الأنساق الثقافية وآليات النقد الثقافي. خاصة عندما تكون اهتمامات النقد النسوي تتعدّى دائرة النص أي لا تقتصر على دراسة جماليات النصوص التي تنتجها المرأة أو وجود المرأة في نتاج الرجل، بل تتعدى ذلك إلى "ممارسة تتقصّى التمييز بين ذكورية المجتمع وغيره، أو أنه النقد الذي يبتدئ بهذا التقصّي، ليبلغ الممارسة الأنثوية في اللغة، ماراً بالمعالجة والصراع، والاستقلال والوعي الأنثوي"[٧] وتجدر بنا الإشارة إلى أهمية دراسة السلطاني التي تمثلت في اختياره للخطاب التربوي، خاصّة أن مستقبلي هذا الخطاب هم أطفال ومراهقين، وبهذه الأعمار يكون الإنسان جاهزاً لتبني الأفكار والقيم الثقافية. فلابد من فحص هذا الخطاب فحصا ثقافيا بأدوات منهجية مناسبة. فالذائقة الأدبية التي يولدها المجتمع تتغلغل في لا وعي الأطفال، الذين

سيصبحون رجالاً ونساءً في المستقبل. وساهمت هذه الدراسة كذلك في إماطة اللثام عن الكثير من الآليات اللغوية، والدلالات الذكورية المكرّسة في اللغة، وفي سياق الحفر والبحث عن تأثير الرجل في إنتاجه الفكري والعلمي. وهدفت مدارس هذا التيار إلى فهم عدم المساواة الجندرية : أسبابها، تحليلها، نتائجها، وتقديم نقد مجتمعي سياسي يركز على حقوق المرأة وقضاياها والتمييز الجنسي وتشيّء المرأة[٨] . ولأن المؤسسة التربوية يقع على عاتقها المهمة الأكبر في بناء المجتمعات، لذا يجب تكثيف الجهود في مجال التنمية البشرية إذ" تعد التربية بداية التنمية البشرية، وميداناً فعالاً وحيوياً في بناء الإنسان وإعداده في أي مجتمع ذلك أن الاستثمار في الموارد البشرية يعمل على تأهيل الأجيال لمواجهة التغيرات، والتكيف مع متطلبات العصر.[٩] ولأن الخطاب التربوي خطاب مؤسساتي، له تأثير كبير ومباشر في بناء المجتمعات، و كل خطاب يريد أن يوصل رسالة ويؤثر في ذهن المتلقي كذلك الخطاب التربوي. فكل خطاب يمارس سلطة ما، فالخطاب الأبوي يمارس سلطته داخل أسرته، ليحصل على الطاعة، والخطاب السياسي يمارس سلطته ليحصل على التأييد، والخطاب الإعلامي يمارس سلطته إما تأثيرا أو تعبئة و توجيها. كذلك حال الخطاب التربوي الذي يعبر عن إيديولوجيا معينة يسعى لتوصيلها بطرق مختلفة.[١٠] والخطاب التربوي خطاب مميز من حيث الرسالة والمرسل والمتلقين. ولأن التمييز بين الرجل والمرأة من القضايا العالمية، في كل المجالات ومجال العمل خاصة، و: التمييز هو بذل نفس المجهود من كلا الجنسين، الرجل والمرأة، وبالمقابل يحصلان على معاملة مختلفة. إذ "هو الاختلاف في المعاملة على أساس (الجنس ،العرق، اللون، الدين، الأصل الاجتماعي، الانتماء الوطني، الرأي السياسي، ....) ينتج عنه إبطال وإضعاف مساواة الفرص"[١١] ونلاحظ أن الجنس البشري تصدّر أنواع التمييز الأخرى. وكلّ هذا يبيّن مدى أهمية اختيار مناهج وزارة التربية العراقية لتكون عيّنة للفحص والتحليل الثقافي. وإنّ اختيار السلطاني لها قدّم فرصة لنقاد ودارسين آخرين في بلدان اخرى. وهو وإن فحص ذلك الخطاب الثقافي من خلال العامين الدراسيين

٢٠٠٩- ٢٠١٠ و ٢٠١٠- ٢٠١١م مع مقارنتها بالطبعة اللاحقة المقرّرة للعام الدراسي ٢٠١١ - ٢٠١٢م؛ فإنّه قدّم نموذجا لا تقتصر نتائجه على تلك الأعوام فقط[١٢]

ويذكر السلطاني أن مصطلح جنوسي الذي تضمنه عنوان الدراسة لا يعني به التمييز على أساس الجنس البيولوجي، الذي نادت به بعض الحركات النسوية، وإنما على الأساس الثقافي الاجتماعي، الذي يندرج تحته أي تمييز جنوسي ينتقص من المرأة ويحجّم دورها في المجتمع.[١٣] وهذا الأمر راجع إلى نظرة المجتمعات إلى المرأة نظرة دونية. إذ تختلف المرأة عن الرجل جسداً وشكلاً فهل تختلف عنه . أيضاً في عقليتها وفي فكرها ...؟ والإجابة من الدراسات الثقافية التي بيّنت أن الواقع الثقافي ينظر للمرأة نظرة سلبية، فالرجل عقل والمرأة جسد وهذا ما تعلن عنه كتابات الفحول، مثل سقراط وأفلاطون وداروين وشوبنهور ونيتشه والمعري والعقاد، واختلافها عن الرجل يجعلها رجلاً ناقصاً، ويجعلها مليكة الخطايا كما يقول بودلير في إحدى قصائده[١٤] ولأن هؤلاء هم قادة الفكر والثقافة والأدب وهم ينحدرون من عصور مختلفة ومجتمعات مختلفة، فقد ترسخت هذه الأفكار والمعتقدات في لاوعي المجتمعات. وهؤلاء الكتّاب في الاصل هم كانوا يعبّرون عن نظرة مجتمعاتهم الثقافية. وحتى وأن تعرضت هذه المجتمعات لموجات من الحداثة والتقدم، تبقى هذه الأفكار مخزونة، على شكل أنساق ثقافية مترسّبة، يتم الكشف عنها عبر الخطابات، أو أي مجال معرفي آخر، ويتم معالجتها من قبل النقد الثقافي والدراسات الثقافية بصورة عامة، حين يكون درسهم درسا برؤية ثقافية ومنهجية حداثوية.

وقد يصبح التمييز خطر يهدد المجتمع. خاصة أن تهميش الأنثى يمثل انحرافاً في السلوك وينبه أن هناك خللاً في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع، خاصة أن المجتمعات العربية تسمح بالتمييز بين الذكر والأنثى إذ "تعد قضية التمييز ضد المرأة في مجتمعنا العربي مشكلة باتت تهدد أمننا القومي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ويظهر هذا التميز في عدم تمكين المرأة اجتماعياً واقتصاديا وسياسياً، وتعد هذه القضية ذات اتجاهات اجتماعية غالبة، ومستمدة من العادات والتقاليد والقيم

السائدة في المجتمع التي مازالت تشكل الموروثات الثقافية أثراً بالغاً في هذا المجال"[١٥] وهذا يؤكّد مدى أهمية مواجهة الدراسات الثقافية لهذه الظاهرة الثقافية، ومنها دراسة السلطاني هذه.

الثنائيات الضدية بوصفها علامات ثقافية وآليات منهجية لدى السلطاني:

عمِل السلطاني على تعقب أنساق التمييز بين الرجل والمرأة من خلال الثنائيات، إذ وجد في الثنائيات علامات ثقافية، تكشف عن طبيعة ذلك الخطاب، مثل (ثنائية الحضور والغياب، الندرة والكثرة، الاتساع والانحسار، التصدر والتراجع ...) لأن الموضوع بالأساس قائم على ثنائية الرجل والمرأة والعلاقة الثقافية بينهما. وهذه الثنائيات التي نشأت في أحضان البنيوية. "إذ تعد الثنائيات الضدية ظاهرة فلسفية أساساً، تم سحبها على النقد الأدبي، وأول من طبقها على الأدب البنيويون، ويعد هذا المصطلح مفردة من مفردات الثقافة الغربية، ويمثل أسساً فلسفية بالدرجة الأولى، له أبعاد إيديولوجية وفلسفية موغلة في القدم."[١٦] وتشكل الثنائيات أحد أهم عناصر النظام الكوني؛ فمنذ بداية الخليقة نجد الثنائيات في الكون. سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، خير وشر... "إذ تشكل كل ثنائية منظومة علائقية أسطورية بدءاً بأساطير الخلق، والمعتقدات القديمة، وصولاً إلى الفلسفة والأدب والسياسية وعلم الطاقة، وتنتج الثنائيات ثنائيات جديدة."[١٧] وحتى النفس البشرية تكمن فيها ثنائيات معينة، مثل مشاعر السعادة والحزن وغيرها ... إذ "يعتمد الفكر بعامة في نشاطه على الثنائيات الضدية، وحوار الحدود المتقابلة والمتباينة، وهو ما يسمى بالفلسفة الجدلية، أو الديالكتيك*، فتجتمع في النفس البشرية ثنائيات ضدية يمكن عدها كامنة في أغوار النفس الإنسانية، ويمكن القول: إن مظاهر الحياة كلها نتيجة ذلك التجاذب بين قطبي هذه الثنائية."[١٨] وحيث ما تتواجد الثنائيات في النصوص أو الخطابات، يتمكن الدارس من تتبع الأنساق من خلال الثنائيات وتأويلها، وهذا ما نجده ماثلاً في دراسة السلطاني، إذ وجد أن وجود الرجل الذكر يحاول أن يلغي وجود المرأة الأنثى دائماً. ولكن في الخطاب التربوي المعتدل لا يمكن أن يكون ذلك واضحاً ومعلنا عنه بطريقة مباشرة، لذلك

تتبع الناقد الأنساق الثقافية المضمرة في ذلك الخطاب من خلال العلامات. إذ "وجود الثنائيات الضدية يعني وجود نسق ظاهر، وآخر مضمر يُستنتجُ استنتاجاً. ولا يتعلق أمر الثنائيات الضدية بظهور طرف، وتخفي آخر وراءه، بل يتعلق بمتلقي هذه الثنائية الذي يؤولها، ويستقبلها بناء على تضاد الطرفين، وظهور طرف، وتخفي آخر."[١٩]

يبحث السلطاني الثنائيات عبر آليات الخطاب الثلاث (المرسل، الرسالة، والمرسل إليه) فمثلاً يبحث ثنائية (الحضور والغياب) عبر أحد آليات الخطاب ألا وهو(المخاطِب)، إذ يفحص الخطاب الموجه الى الطلبة عبر مقدمات الكتب والأسئلة الضمنية التي توجه للطلبة، وحتى الهوامش التوجيهية... ويرصد نسق التمييز وشخصه، فمثلا وجد أن المؤلفين في مقدمات الكتب وجّهوا خطابهم إلى المعلمين(عزيزي المعلم) وأهملوا المعلمات، اللاتي هن الأقرب إلى الطلبة[٢٠] لكونهن أمهات، والطفل في المراحل الأولى من حياته يكون أكثر التصاقاً بالأم، والمعلمات اصلا اكثر من المعلمين في المدارس الابتدائية. ويقف أيضاً عند كلمة(تلاميذ) التي يتوجه الخطاب غالباً بها، التي هي جمع للمذكر فقط، ويجد أنه من الأصح أن يضع المؤلفون كلمة(تلامذة) التي تشمل كلا الجنسين (التلميذ والتلميذة) وبهذا يقول "ولم نجد توجيهاً واحداً يخاطب المعلمة الأنثى، فهي المغيبة الملغاة. وكأنّ هذه الكتب المقررة لن يقوم بتعليمها للتلامذة سوى المعلمين الذكور!، لذا نجد أن نسبة خطاب المعلم الذكر في كتب المرحلة الابتدائية كلها هي ١٠٠%ونسبة خطاب المعلمة الأنثى صفر"[٢١] وبهذا وجد أن الكتب الدراسية تتضمن قيما ثقافية تتجاهل وجود الطالبة والمعلمة والمرأة، وما يترتب عن هذا الخطاب عن قيم وأفكار سلبية تؤثر على شخص المرأة، وبهذا تم إلغاء أحد أطراف الثنائية وهو المرأة، ومن خلال التغييب المتعمد تظهر رؤية المجتمع خاصة. وبهذا عندما تصل الطفلة لسن دخول المدرسة التي تعتبر ثاني مؤسسة اجتماعية وحياتية، تنظم إليها وتجد ذاتها مهمّشة لا تُخاطب ولا يُشار إليها وينعكس ذلك على اللاوعي الخاص بها والخاص بالطفل الذكر فيقول السلطاني: "فضلاً

عن سلبية الرسالة الثقافية التي يحملها ذلك الخطاب، الذي تُشوَّه من خلاله نظرة الطالبة لذاتها، مثلما تُشوّه من خلاله نظرة الطالب الذكر للأنثى، ولا ينبغي أن نستبعد الأثر السلبي في مستوى تلقي المعرفة العلمية التي يحملها ذلك الخطاب التربوي الذي يتجاهل مخاطبة الأنثى. إذ قد يصنع حاجزاً نفسياً بين الطالبة بوصفها ذاتاً متلقية تم تجاهلها، وبين المعرفة العلمية التي تُقدّم من خلال نصوص ذلك الخطاب"[٢٢] ويذكر أن التغليب اللغوي، أصبح قدر المرأة الدائم. فمن خلال اللغة تغيب المرأة أيما تغييب.

ويجد أن غياب المرأة لم يكن ملازماً للحضور، أي لم يكن غياباً طبيعياً يلازم حضورها، بل كان غيابا متعمّدا صنعه الرجل، إذ يقول "تنظر إليه بمعنى (حضور وطمس) حيث طُمس وجود المرأة وغُيّبت وحضر الرجل بديلاً عنها"[٢٣] إذ شكل هذا الطمس حرمان للمرأة من إثبات ذاتها وترسيخ حضورها، وإن إقصاء المرأة لم يأتِ بشكل عفوي ظهر مرة وغاب مرة أخرى بل كان إقصاءً متعمدا وشكل نسقاً ظاهراً. وحتى بما يتعلق بمسألة التعريف بالأشخاص سواءً كانوا شعراء أم كتاب ومفكرين، يذكر السلطاني أن المرأة، لم تأخذ نصيباً كافياً، إذ لم يتم التطرق إلى شخص المرأة ودورها الفعّال في المجتمع من حيث الموضوعات التي تضمنتها تلك الكتب. والمرأة الشاعرة مثلاً، تركت أثرا ورسالة ثقافية، عبرت عن كيانها كامرأة لها رؤية خاصّة في الحياة، ولكن مع هذا جاءت نسبة التعريف بالنساء الأديبات لا تتجاوز ٨%[٢٤] . وشكل غياب المرأة وحضور الرجل الدائم نوعاً من التضاد، أو علاقة متأزمة غير متكافئة و"يعبر التضاد عن توترات الواقع، ومعاناة الوجود، ويؤثر الجمع بين المتضادين في وجدان المتلقي، وترتبط الثنائيات الضدية ارتباطاً وثيقاً بالوجود، والمشاعر الإنسانية، وصفاء النفس."[٢٥] ويبحث السلطاني في ثنائية أخرى هي ثنائية (الندرة والكثرة) إذ يجد أن نصوص المرأة جاءت قليلة إلى حد الندرة، إذ وجد أن كتب المرحلة الابتدائية خلت تماماً من أي نص يعود لامرأة، أما في المرحلة الثانوية جاءت قليلة جداً ونادرة شكلت ٦% فقط، بالرغم من غزارة وتكثيف

المادة العلمية في هذه المرحلة. ولأن النص الأدبي سواءً كان (قصيدة، قصة، قطعة نثرية...) يحمل رؤية ثقافية، حُرمت المرأة من أن يكون لها صوت ثقافي ورسالة مؤثرة في وعي الطلبة.[٢٦]

وبعد أن بحث في ثنائية الندرة والكثرة جاء ليفحص هذه الندرة فوجدها تنحسر بشكل متعمد، ليشكل ثنائية ثالثة وهي (الاتساع والانحسار) وذلك عن طريق عدد الأبيات الوارد للرجل وللمرأة، إذ وجد أن أبيات الشاعرة تأتي أقل بكثير من أبيات الشاعر في كل مرحلة، منهن (ليلى الأخيلية، حمدونة بنت زياد، لمعية عباس عمارة ...) فمثلا وجد نص الشاعرة لميعة أقصر نص شعري في كتاب المطالعة للصف (الخامس الإعدادي) فلم يتجاوز سبعة أبيات. بهذه الثنائية يسجل التمييز حضوراً واضحاً ضد المرأة فيقول: "هكذا يتضح أن انحسار مساحة النصوص الشعرية المختارة للنساء جاءت أيضاً على نحو نسقي ظاهر، ولم تكن أمراً مقتصراً على بعض الكتب دون غيرها وتعاضدت ندرة نصوص المرأة مع انحسار مساحة النص المختار ليعبّرا تعبيراً نسقياً واضحاً في تلك الكتب، وبذلك كان هذا النسق بفرعيه مكوّناً من مكونات الخطاب، وشارحاً لشكل من أشكال تحجيم حضور المرأة في هذا الخطاب. إنه يعبر عن تمييز جنوسي ضد المرأة"[٢٧]

ويذكر أن حراك الدراسة يقوم على الحركة الدائمة بين النص والسياق "ففي التحليل نبحث في نصوص الكتب موضع المعاينة ضمن حيزها الثقافي، مفتشين عن دلالتها في ذلك الحيّز، فحين يختلف الحيز قد يختلف معنى النص وتختلف الدلالة. وباختصار نبحث فيها بوصفها خطاباً، لا بوصفها نصوصاً تحمل علامات سيميائية مفصولة عن سياقها"[٢٨] وهذا يعني أن للسياق أثر في التحليل الثقافي، إذ يختلف تحليل هذه النصوص من ثقافة إلى أخرى حسب السياقات الثقافية.

الأنساق من خلال الصور والرسوم :

بالإضافة إلى الخطاب اللغوي، أخضع الصور الإيقونية والرسوم في تلك الكتب للتحليل والدراسة مستعيناً بثقته بالنقد الثقافي؛ لأنه وجد فيها ما يثري دراسته في الكشف عن الأنساق، وهنا نود

أن نبين أهمية الصورة في عالم الحداثة والتكنلوجيا المتطور إذ أصبحت الصورة تضاهي النص، يتم إخضاعها للتحليل والدراسة الثقافية، إذ "أصبحت الصورة المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد في لغة صامتة تخاطب الحواس، ولغة جديدة، تعلو كل اللغات البشرية، و يبدو ذلك جلياً من خلال الهيمنة التامة للصورة على حياتنا المعاصرة. "[٢٩] فمن خلال الصور نستطيع الوصول للفكرة والرسالة التي تحملها، بفضل التقنيات الحديثة. فقد تكون دلالة الصورة أقوى من دلالة النص أو الكلام وتكون أكثر تأثيراً. "فهي وسيلة تعبيرية قوية، عالية المستوى، ذات طابع فني، نستطيع من خلالها بناء تصور عن الشيء الموجود في الصورة."[٣٠] احصاءات السلطاني تبيّن أن النسبة المئوية للظهور المرأة الناضجة لا تتجاوز ال٢٥% مقارنة مع صورة الرجل، وظهرت بنسبة ٢١% عاملة خارج البيت، في حين رسمت المرأة الناضجة في بيتها بنسبة ٧٩%، فكانت صورة المرأة مرتبطة بمكان مركزي هو البيت، الذي يمثل موضع سيطرة الرجل في منظومة الثقافة الأبوية. فهو المهيمن وصاحب السلطة، لأنه (أبو البيت) كما درج القول. فالبيت موضع تغيب فيه المرأة عن مسرح الحياة الواسع ويُحدّد دورها، في مسرح صغير مُسيطر عليه (البيت). وحين تُرسخ في ذهن التلامذة هذه الفكرة (موضع المرأة هو البيت) تؤسس قاعدة للتنميط الذهني، يربط فكرة المرأة بنظام البيت الأبوي، بوصفه النواة المقدَّسة والخروج عليه إنما يمثل خروجاً على الصحيح المثالي)[٣١] فالنظام الإيقوني نقل الصورة الحضورية للمرأة كما في الواقع العراقي. وإذا ما أردنا أن نناقش فكرة وجود المرأة داخل البيت، وعدم ممارستها للعمل خارج البيت، نجد الأمر بشقين. الأول حين ننظر ما ينبغي أن يكون عليه الحال مستقبلا، وليس تصوير الواقع. وهنا يكون موقف الناقد السلطاني سائرا في هذا الطريق. وهو أن مهمّة الدراسات الثقافية أن لا تشخص الواقع الآني فحسب، وإنما تنظر لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل المرأة في الواقع الاجتماعي. فلا يقتصر وجودها على البيت وإنّما يتعداه إلى العمل خارج البيت وبتكافؤ في الفرص مع الرجل. والشق الثاني حين ننظر إلى الموضوع من جهة تصوير الواقع الاجتماعي والثقافي القائم، ورسم المرأة داخل البيت وصورتها كأم ومربية، جاء يحاكي الواقع في

المجتمع العراقي. والأمر الآخر إن غالبية النساء ربات بيوت وهنا يكون البيت المكان الآمن للمرأة وليس المكان المغيِّب، فضلا عن ليس جميع الناس لهنّ القدرة على العمل.

وعن طريق الصور والرسوم يبحث السلطاني ثنائية التصدر والتراجع. إذ يجد أن هناك آلية تسفيل للمرأة على حد تعبيره، حيث يُرسم الأخ أكبر حجماً من الأخت ويتقدمها بمرحلة وهذا بدوره يقوده إلى فكرة (الأبوة)، ويُرسم المعلم في أعلى الصفحة ويكون (متصدّراً) المشهد بينما ترسم المعلمة أسفل الصفحة وبهذا تكون (متراجعة) وتظل المرأة متراجعة بكل الرسومات التي يحضر الرجل معها. فيقول "إن مجمل العلامات السيميائية تجسد فكرة (تسفيل) موضع المرأة، لتحاكي (تسفيل) موضعها في واقع الحياة. وكأن الكتاب يقول للتلامذة ضمناً: هذا موضع المرأة في صفحات الكتاب وهو ذاته موضعها في الواقع الحياتي، وأيضاً هي في الواقع الذي ينبغي أن يكون عليه مستقبلاً. ومثل هذه التجليات النسقية إنما تتحرك بفعل نسق ثقافي يعمل بانتظام وعفوية."[٣٢] ولكن من اللافت للنظر عدم تطرق السلطاني لهيئة المرأة وملبسها خاصة أنها ظهرت في كل الصور محجبة، باعتبار أن الحجاب علامة ثقافية، تكشف فيما إذا تم فُرض عليها مظهر واحد في الخطاب التربوي، عكس الرجل. خاصة أنه ليست كل النساء في المجتمع العراقي محجبات؛ لكي تظهر المرأة في كل مرة محجبة للطلبة، وبالتالي شكل هذا الأمر نوع من الهيمنة. ويمكن أن يُرد سبب عدم تطرق السلطاني لمسألة الحجاب؛ لارتباطها بالمسائل الدينية بشكل مباشر، وبالعادات والقيم الثقافية العربية عامة والعراقية خاصة. فالملابس عبارة عن أيقونة ثقافية صامتة تحمل دلالات نسقية، وهي بمثابة البيان الاعلاني عن الخلفية الدينية والعقائدية والثقافية، فاللباس هو عبارة عن صورة ثقافية، والسلطاني في دراساته الثقافية لم يكن بمنأى عن علامات الهيئة الثقافية، وهذا ما سنفصل فيها القول في فصل سيمياء الثقافة. وربمّا عدم تطرقه لمسألة رسومات المرأة وهي ترتدي الحجاب في الكتب التي حللها تعبير عن

إيمانه بأن الحجاب بحد ذاته حين يكون في ثقافة خطاب تربوي معيّن ليس بالضرورة دلالة سلبية، وليس تعبيرا عن سلب لحقوق المرأة.

النسق الثقافي الذكوري والنظام اللغوي:

من خلال اللغة نتعرف على المزاج الثقافي للمجتمعات. إذ يذكر السلطاني معتمدا على استنتاجات علماء اللغة "أن كل تحول لغوي يصاحبه تحول ثقافي"[٣٣]، وأن هناك علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة فإذا ما حدث تغيّر في اللغة، ينعكس ذلك على المجتمع ثقافيا بطريقة مباشرة. إذ للألفاظ سلطة على الوعي واللاوعي أيضا، وإذا ما حدث تغيّر في الثقافة، فإن ذلك ينعكس على اللغة أيضا. ومن هنا نرى أن العبارات اللغوية السلبية تؤثر على الأفراد نفسياً بشكل مباشر. بل أن لاوعي الإنسان نفسه مؤسس من نظام اللغة [٣٤] .، ويفهم السلطاني الثقافة نسقية النظام وهي في هذا مثل اللغة نفسها التي تتأسس من نسق من العلامات خاضع لبنية، اي لمنطق نسقي، يمثل الضمان الأساس لوجود اللغة، بوصفها نظاماً قابلاً للحياة والاستمرار، والنظام نفسه وسيط لنقل الثقافة. ونفسه يتدخل في تشكيل بنية العقل الإنساني[٣٥] وهذا يعني أن اللغة كائن حي يتطور ويتأثر بالمؤثرات المحيطة والتي ينشأ في ظلها. ويلحظ السلطاني مشكلة ثقافية في النظام اللغوي العربي تتمثل في خطابه المغيّب للأنثى. وأن بعض معالجات التمييز الثقافي ضد الأنثى إنّما يبدأ من معالجة اللغة نفسها بزيادة المصطلحات الدالة على الإنسان لاسيما ما يتعلق منها بالدلالة على المهنة، وبفتح باب الاشتقاق الصرفي وبمعالجة قانون التغليب اللغوي الذي يخاطب الأنثى بصيغة المذكر. علما أنّ هنالك مشكلة تقسيم إلى مذكر ومؤنث ليس في النظام اللغوي العربي وحده. ولكن العربية لديها مشاكل خاصة بنظامها فهو نظام لغوي مشتق من ثقافة ذكورية. واللغة تعيد إنتاج الثقافة الذكورية وترسخها في ذهن مستعمل اللغة، لاسيما حين يكون متلقي اللغة تلامذة وطلبة مستعدين للتاثر والغرس أكثر من فئات عمرية أخرى. ويفصل السلطاني في الموضوع كثيرا لقناعته باهميته الثقافية المتعلقة بالتمييز الجنوسي

ضد المرأة فيخصص حوالي عشرين صفحة من هذه الدراسة لمعالجة علاقة اللغة بالثقافة وبالتمييز الجنسوي ضد المرأة خاصة[٣٦]. والتقسيم أو التمييز ينقسم إلى قسمين " فمسألة التقسيم يمكن أن تتخذ منحى من منحيين، الأول منهما معرفي لا ضير فيه، أي حين تكون هنالك حاجة معرفية، تستدعي التمييز بين المذكر والمؤنث في حقل الدراسات الفسلجية، لا الحصر، والمنحى الثاني في هذا التقسيم ثقافي يخص القيم الثقافية وهذا فيه كثير من منابع الخطر فقد ينتج من هذا المنحى تمييزاً جنسوياً بدوافع ثقافية ولغايات ثقافية."[٣٧] وهو يخص بدراسته التقسيم الثقافي الثاني الذي يخص القيم الثقافية، وينطلق من المواضع اللغوية التي يتم إلغاء المرأة أو الأنثى فيه. ويقول السلطاني: أن قانون التغليب اللغوي هو من أخطر القوانين اللغوية الثقافية، وهو يتجلى في الصيغ الصرفية "فهيمنة النسق اللغوي الذكوري في اللغة العربية يتجلى واضحاً في كل مفاصلها البنيوية، سواء في هيمنة صيغ التذكير وفاعليتها و رمزيتها. أم في الواقع الدلالي للمفردات وأصول اشتقاقاتها في المعجم العربي، أم في تركيب الخطاب المتعلق بقانون التغليب اللغوي"[٣٨]. وبالبحث عن معاني التغليب نجد أن معظمها "تدور في مجملها حول القوة والقهر والشدة"[٣٩] وهذا ما يجعل أحد أهم أنواع التغليب تغليب المذكر على المؤنث، لأن قوة الرجل الجسمانية أكبر من قوة المرأة وهناك أسباب أخرى إذ جاء تغليب المذكر على المؤنث في اللغات العالمية المختلفة؛ لأن الرجل لا يجلب العار الذي تجلبه المرأة حملًا على ما كان سائداً في تلك المجتمعات التي بنيت القواعد والأصول اللغوية فيها على عاداتها وأعرافها الاجتماعية،[٤٠] ويستحضر السلطاني امتعاض جوليا كرستيفا من النظام اللغوي إذ أن النظام اللغوي بشكل عام يشكل آلية من آليات القمع الذي يمارس ضد المرأة بل يتبين التمييز واضحاً ضد الأنثى[٤١]وأشار إلى المفارقة الحاصلة بين خطاب التأنيث وخطاب التذكير، إذ يتم الإعلاء من شأن الأنثى إذا خوطبت بخطاب المذكر، بينما الذكر إذا خوطب بخطاب المؤنث فهذا يعني الحط من شأنه "وبمعنى أكثر تجريدا. يمكن تصوّر قانون التغليب وقد أشتغل في لحظتين تاريخيتين، الأولى تم تشغيله ليتأسس في بنية اللغة التي قسمت إلى مؤنث ومذكر، وحين يجتمع مذكر ومؤنث تكون التثنية

بصيغة المذكر. واللحظة الثانية لتشغيل قانون التغليب أن يصبح شكل من أشكال الإجراءات التي تتخذها الثقافة لمعالجة نظام التذكير والتأنيث"[٤٢]

ليس فقد في قانون التغليب، وإنّما النظر في القاموس يبيّن تسميات ذكورية لصفات خاصة بالمرأة دون الذكر كصفة حائض التي على وزن صيغة المذكر. وأن ثقافة القبيلة القائمة على القوة والذكورة كانت موجودة بقوة في اللغة العربية. وبشكل عام وزحفت الذكورة اللغوية إلى صفات المرأة [٤٣]. ولكن في المقابل أيضاً هناك بعض الصفات الخاصة بالمذكر جاءت بصيغ مؤنثة ويجده السلطاني أنه نسق فرعي مطموس في اللغة العربية ولا يقارن بالهيمنة الذكورية اللغوية، فيقول "من المفيد هنا أن أشير إلى وجود نسق فرعي يعلي من شأن التأنيث، كجمع بيت على بيوتات، وكقولهم في المبالغة، علّامة ونسّابة... وغير ذلك، إلا أنّ هذا النسق الفرعي نسقٌ مطموسٌ في اللغة العربية، ولا يعد شيئاً أمام هيمنة النسق الذكوري متعدد العلامات والمسرف في حضوره"[٤٤] ويرجع سبب النسق الذكوري اللغوي إلى ثقافة القبيلة إذ تبحث عن كل شكل من أشكال القوة لمواجهة البيئة الصحراوية القاسية والقوة تتوفر في الذكر دائماً بسبب طبيعته الجسمانية.

الأنساق في مضامين النصوص الأدبية:

في ما يخص فحوى المضامين يفحص السلطاني النصوص الأدبية الواردة في الكتب التربوية المنهجية، ويحلل الخطاب تحليلا ثقافيا. يقف مثلا على قصة بعنوان (من كرماء العرب)، يظهر فيها حاتم الطائي كريماً، والذي لجأ إليه امرأة فقيرة تطلب الطعام وليس رجلا. ويجد السلطاني بعد تحليل النصوص المختارة من حيث نسبتها، أن العنوان خلا من أي إشارة إلى الكريمات من النساء العربيات، وفي هذا تعبير عن نسق ثقافي ذكوري[٤٥] أي أن الثقافة العربية لا تحتفي كثيراً بكرم المرأة، وغالباً ما يستحسن فيها البخل؛ وذلك لإنها هي المسؤولة عن إدارة البيت "فهناك صفات وقيم ليس للمرأة حق فيها، هذا ما تقوله الثقافة وتؤكده الأدبيات الاجتماعية، ولقد قالوا إن البخل والجبن يحمدان

في المرأة. وليس منتظراً منها أن تكون شجاعة أو كريمة ولقد كتب القتل والقتال على الرجال وعلى النساء دق الطبول، حسب دعوى عمر بن أبي ربيعة."[٤٦] وهذه قيم ثقافية موجودة في الواقع الاجتماعي العربي على امتداد تاريخه المدوّن. وبهذا كرّست الثقافة صورة للمرأة العربية من خلال صورة زوجة حاتم الطائي، إذ أصبحت علامة ثقافية دالة على البخل فهي تلومه وتعذله، وصورت الرجل على أنه لا يخضع لها ويصر على مسألة الكرم.

ويحلل الناقد تحليلا ثقافيا وصية أم لابنتها توصيها بحسن السمع والطاعة، وأن تتعهد مواطن عينه وأنفه فلا يرى منها قبيحاً، وأن تعرف وقت طعامه ومنامه ... ويخلص الناقد إلى أن هذه الوصايا تحمل سمة عبودية المرأة، والانصياع لها يؤدي إلى العبودية، ويجد أنّ هذا النص بمثابة تدريب على العبودية، أي أنّه يدرب الطالبة التي تدرس هذا النص على المخاتلة والحيلة والمراوغة، ويجد أن هذه ليست من القيم الثقافية المناسبة لامرأة تحترم نفسها وتعتز بذاتها[٤٧] وبهذا نجد أن حكايات التراث ملغمة بالأنساق الظاهرة والمضمرة. وكان يُفترض أن يبتعد مؤلفوا تلك الكتب التي تدرس للطلبة عن اختيارها لأنّها تقدم لهم نماذج ثقافية غير ملائمة لعصرنا الذي خطت فيه البشرية خطوات كبيرة في منح المرأة حقوقها الانسانية الثقافية. وكان يمكن لهؤلاء المؤلفين أن يختاروا نصوصا أدبية لا تتضمن قيما ثقافية سلبية. ويخص الناقد إلى أن تلك القيم السلبية الموجودة في النصوص الأدبية المختارة يخترقها خيط نسقي واحد ، أي أنّها ليست قيما ثقافية فردية ومتنوعة ومتناثرة في تلك الكتب ولا تنتمي إلى نسقية معيّنة. فهي موجودة في كل تلك الكتب والنصوص التي اختارها المؤلفون .

ومثلما وقف الناقد على تحليل المختارات الأدبية النثرية وقف ايضا على النصوص الشعرية التي اختارها المؤلفون لتُدرّس للطلبة. ووجد في تلك النصوص الشعرية تمييزا جنوسيا ضد المرأة. وقد اخذ بنظر الاعتبار خصوصية النص الشعري، الذي هو نص ملغّم. لأنه نص مكثّف ومكتظ بالمجاز، ولأن طبيعة النص الشعري تسمح بتنقلات سريعة بين الموضوعات، وهذا يشكّل صعوبة على الناقد

الذي يحلل نصا شعريا تتبع النسق حتى النهاية. وهذا أمر يذكّرنا بتأكيد السلطاني في تمهيد كتابه على أن مهارة الناقد وإلمامه بمختلف المناهج وأدوات التحليل شرط في نجاح التحليل الثقافي[٤٨] وينبغي هنا أن نشير إلى أهمية النص الشعري في الكتب الدراسية، وكيف تؤثر إيجاباً على ذهن الطلبة، فإنها نصوص، "وإن تفاوتت حجماً وموضوعاً فالبعد الشعري حاضر فيها لغة ومعاني وإيقاعاً. فثمة صورُ بلاغيةُ تسرحُ بخيالِ المتعلمِ الصغير في الصفوف الأولى من النظام التربوي، وتدفعه إلى تقبلِ المعاني والدلالات الجديدة. كما تجعلهُ يستأنسُ بلغتِها المنزاحةِ عن اللغة التي يستعملها في خطاباتهِ اليوميةِ. فهي نصوص متنوعةٌ، تمجد المكان والزمان والإنسان والحيوان. وتقدمها في أطباق جمالية وإيقاعية، تخلق الدهشة الجمالية، وتعزز القيم وترسخها في سلوك المتعلم."[٤٩].

يفحص السلطاني النصوص الشعرية ويحللها سواء كانت من النصوص القديمة أو الحديثة. ولكنه كثيرا ما يقف عند أشعار العرب القديمة، لكونها مختارة كثيرا ولكونها مسرحاً، تتركز فيه الأنساق . من ذلك انّه يحلل بيت لعنترة ويجد أن المرأة المخاطبة في قصيدته عبارة عن صيغة أسلوبية فيسميها(المرأة الصيغة) وليست المرأة الحقيقة:

هَلّا سَأَلتِ الخَيلَ يا اِبنَةَ مالِكٍ إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعْلَمِي

"فسؤال الخيل مجازي المراد به سؤال من يركبون الخيل في القتال، ودور المرأة لا يتجاوز مرحلة السؤال، وهي مقصّرة حتى في السؤال، إذ تبدو وكأنها غير راغبة في معرفة شيء"[٥٠] ولكن يمكن أن ينظر إلى البيت من زاوية أخرى فهو لمَ يردها أن تسأله عنه وعن معاركهِ؟، لكي ينال اعجابها ورضاها. ويظهر في صورة الفارس البطل. خاصة أن الثقافة الأدبية، تحمل في طياتها موقفاً ينحو إلى تناقض مثير للدهشة، "حين نجد أن الشاعر العربي قد رفع من شأن المرأة معنوياً وصارت هي المحبوبة التي يتغزل بها، فيصفح لها عواطف فياضة من أجل الوصول إليها اشباعاً لحاجة التملك العاطفي الحسي وهي التي مثلت في الوقت نفسه هيام الذكر بها حد الموت، في حال الفراق

والرحيل."[٥١] . ويبقى تحليله تحليلا مفصلا مهما لقصيدة إبي ذؤيب الهذلي التي تُدرّس للصف الرابع الأدبي وتبدأ:

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قالتْ أُمَيْمَةُ: ما لِجِسْمِكَ شاحِباً مُنْذُ ابْتُذِلْتَ ومثلُ مالِكَ يَنْفَعُ

فهو وجد من المناسب لتحليل هذه القصيدة أن "ننظر في طبيعة حضورها نظرة تفكيك، مستثمرين الإجراءات التفكيكية التي تُفعّل المواضع الهشة في نسق الخطاب والتعارضات التي يتضمنها"[٥٢] واستنتج بعد التحليل أن حضور أميمة هذه في قصيدة الشاعر ليس سوى حضورا متخيلا ويستند إلى نسق ثقافي موجود في الشعر العربي، وهي صيغة أسلوبية فنّية وليس أمرأته الحقيقة لأنّها تسأل في القصيدة أسئلة لا يمكن أن تسالها امرأة زوجة تعرف تفاصيل حياة زوجها وتشاركه فيه. وبهذا هي لا تختلف الصيغة الأسلوبية التي وجدها في قصيدة السموأل أو التي كانت في قصيدة عنترة وهو يطلب من حبيبته أن تسأل الناس لأنّها جالسة في البيت ولا تعلم ماذا يجرى خارج بيتها في ساحات القتال مثلا[٥٣]. وهنا يتضح كيف أنّ النسق الفني في الشعر يتاثّر بالنسق الثقافي، ويمكن أن نجده عند أكثر من شاعر. وقد نجده في أكثر من عصر. فالنسق الذكوري الذي وجده السلطاني في نصوص شعرية تُدرّس للطلبة مختارة من العصر الجاهلي؛ وجده أيضا في نص شعري من العصر الحديث يُدرّس للطلبة، وهو لشاعرة هي فدوى طوقان " إنّ فاعلية النسق الثقافي الذهني الذكوري الذي يحرِّك التمييز الجنسوي ضد المرأة في هذه الكتب صارت بادية بوضوح. بل فاعليته مهيمنة على نصوص المرأة نفسها. وإذا جاز لنا أن نتحدّث عن لاوعي النص، سنقول إنّ لاوعي نص الشاعرة فدوى طوقان المختار جاء بفعل اشتغال نسق ثقافي ذكوري. فهو لم يكن سوى نص كتبته امرأة، أي لم يكن نصّاً نسوياً مُعبّراً عن أهمية وجود المرأة، إنّما هو نص يمجّد دور الرجل، ويعلي من شأنه على حساب دور المرأة"[٥٤]

وفي مجمل الدراسة التي قدمها السلطاني يمكنني أن اقول شيئا وهو: إنّه بالرغم من كل النتائج المهمة التي وصل إليها الناقد وأنه أعلن عن حلم إنسانية الإنسان المدني أن يكون الرجل والمرأة متكافئين متكاملين، ولكن هناك مسألة مهمة يجب الإشارة إليها وهي أنّ الواقع الثقافي له سطوة كبيرة جدا. ومن علامات هذه السطوة أن المسيطر يكون قادرا على إنتاج ثقافة الوهم "انطلاقا من منظور النقد الثقافي تتولى الطبقة المسيطرة تهدئة الطبقة المنتجة عن طريق إنتاج ثقافة موحدة جديدة، تتولى تغذية تلك الطبقة (بالوهم) وهم الثقافة الحقيقة، وتقديم ثقافة النمط الثقافي الزائف، بديلاً عن ثقافة التميز والاختلاف، وحينما تواجه ثقافة الطبقة المهيمنة بثقافة المتمردة، تقوم بتطويعها وترويضها، بل ابتلاعها لتصبح جزءاً من الثقافة المؤسسية "[٥٥] . ويبدو أن الأنثى ذاتها تدافع عن الذكورة، أحيانا وتصبح منخرطة في هذا النظام الثقافي، فنازك الملائكة نفسها تعترض على الشاعر علي محمود طه لأنه وضع عنواناً لقصيدة من قصائده كالتالي :(هي وهو: صفحات من حب) وتعلق نازك الملائكة على هذا التعبير قائلة : الترتيب العربي أن يقول(هو وهي) لأن التقديم عندنا لضمير المذكر على ضمير المؤنث وما من ضرورة لتغيير هذا الأسلوب"[٥٦]. وبالرغم من أنّ السلطاني يعترض على النسبة الضعيفة للمؤلفات لتلك الكتب التربوية، ويدعو إلى زيادتها كي تكون المرأة مشاركة في التأليف بصورة أكبر؛ هو نفسه خرج باستنتاج بعد التحليل الثقافي لك الكتب أنه لم يجد اختلافا في المحتوى التمييزي ضد المرأة بين الكتب التي اشتركت فيها المرأة والكتب التي لم تشترك فيها المرأة. وهذا يفسر فكرة تغلغل النسق الثقافي في أذهان الرجال والنساء من المؤلفين، وأن المرأة يمكن أن تكون كالرجل في قبول ثقافة التمييز ضد المرأة. لذلك يؤكد السلطاني في دراسته على نوع الوعي الذي يحمله الإنسان سواء كان رجلا أو امرأة، ويقول: "دعوة بحثنا لحضور المرأة في التأليف لا تعني ذلك الحضور الأجوف، أي حضور المرأة المؤلِّفة لا لشيء إلا لكونها امرأة، فهذا لا يكفي وليس له من الأهمية سوى ما يتعلق بالبعد الرمزي كونها امرأة حاضرة. فالرهان أساساً قائم على نوع وعي المؤلِّف سواء أكان ذكراً أم أنثى"[٥٧]

لقد حاول السلطاني عبر دراسته ذات المرجعية التخصصية التي تنتمي للتحليل الثقافي بكل ينابيعه التي يقدر على استعمالها السوسيولوجية واللغوية والإديولوجية والنفسية وغيرها؛ معالجة التمييز الجنوسي ضد المرأة في الخطاب التربوي من كلّ هذا المتعدد الذي يشكّل الثقافة. كما نلاحظ أنه اعتمد في نقده على ما يسمى (علم العلل) إذ قام بإظهار العلّة أولاً ثم أطلق الحكم مما جعل ممارسته، ممارسة نقدية حديثة، وما يميز دراسته أنها تمتعت بجانب كبير من الدقّة والعلمية. إذ عمد إلى استخدام النسب الاحصائية، مما جعلها أكثر علمية ومنهجية. "إن الإحصاء هو أهم أدوات او وسائل التسجيل والرصد والوصف والاستدلال واستخلاص النتائج وبالتالي فإن التطور العلمي والخدمات الجليلة التي تقدمها التكنولوجيا في مجالات الإحصاء لا تغني عن مهارة الباحث العلمي وخبرته"[٥٨] . ومجمل توجهات السلطاني في البحث في دراسته لموضوعة التمييز ضد المرأة يمكن تصنيفها ضمن توجهات ما بعد حداثية. لأنه ينطلق في رؤيته الثقافية من معطيات ما بعد حداثية التي أهمها تجاوز المركز والاهتمام بالهامش، والانفتاح على الأفكار الثقافية العالمية التي تدعو الى تحرير المرأة وعدم التمييز ضدها، ومنها استثمار مختلف الإجراءات المنهجية في البحث والتحليل، فهو يفتح أسيجة المناهج على بعضها كما صرح بذلك في كتابة.

ويُحسب له التركيز على جانب حساس ومهم الا وهو الخطاب التربوي حتى وأن كانت الأنساق مضمرة ولا تتحدث مباشرة لكنها تشكل صوراً نمطية في لاوعي الطلبة، ولكن نجد نوعاً من المبالغة في تأكيده على مظلومية المرأة وأن ما يدعو إليه السلطاني يرجع إلى أفكار غربية أكثر من عائديتها إلى أفكار عربية، وهذا ما يشكل نوعاً من التصادم مع القيم الثقافية السائدة، ولهذا نجد السلطاني ينوه في بداية الدراسة أنه استبعد النصوص الدينية. وما يمكن أن يُقال هنا من زاوية اخرى أنّ السلطاني يؤمن بفكرة العبور في كل شيء في المنهج، حيث يستخدم مختلف الاجراءات المنهجية وفي طبيعة الموضوعات التي يتناولها النقد الثقافي الذي لا يقتصر على موضوعة ويترك أخرى، ويمكن أن نجد

موضوعا معيّنا في أكثر من تخصص أو مكان. ومن ذلك العبور أن نجد لديه افكارا تخص تحرر المرأة عالمية عامة عابرة لحدود الثقافات، لأنّها تخص فكرة المرأة التي هي إنسان في كل زمان ومكان. لكنه ثقافيا لم يأخذ بأفكار الحركات النسوية المتطرفة. وهو بعدان يتعرض أنواع تلك الحركات يشير إلى بعضها لا تنسجم مع طبيعة الواقع الاجتماعي للمجتمعات العربية وطبيعة ثقافتها، بل بعضها لا تناسب إنسانية الانسان(٥٩)

وخلاصة الموقف من هذه الدراسة الثقافة، أنّ موضوعها مهمّ وهو فحص التمييز الجنوسي ضد المرأة، فالمرأة نصف المجتمع وهي تعاني من التمييز ضدها في حقول حياتية كثيرة، والمجتمع بحاجة إلى وجودها ليس في البيت فحسب بل في الحياة كلّها وأن تأخذ استحقاقها الانساني من غير تمييز ضدها. وأنّ اختيار العيّنة كان مهما فالسلطاني اختار الخطاب التربوي التعليمي في العراق. وهذا أمر فيه شمولية وليس مقتصرا على فئة معيّنة من المجتمع، فمعظم المجتمع يمرّ بمرحلة تعليمية ويقرأ كل هذه الكتب أو بعضها ويتاثّر بالقيم الثقافية التي تحملها تلك الكتب. وهذه الدراسة سليمة من حيث الرؤية المنهجية التي تحركت في ضوئها، وهي افكار النقد النسوي المعتدلة التي تؤمن بحق المرأة في المساواة وبفرص مناسبة في الحياة وليس الإيمان بالرؤية المتطرفة لبعض التوجهات النسوية الداعية إلى اشياء لا تناسب الواقع الثقافي العراقي ولا تخدم هذا الواقع ، بل وهي أصلا لا تناسب إنسانية الإنسان رجلا او امراة. فثقافيا رؤية هذه الدراسة رؤية تنويرية غير متطرفة. ومنهجيا استندت الدراسة إلى أجراءات نقدية حداثوية ومناسبة لطبيعة الموضوع، من الاعتماد على الثنائيات التي هي موجودة فعلا في الموضوع وفي كثير من مفاصله. واعتمدت على النظر في العلامات بكل أشكالها اللغوية والرسوم وحجم المكتوب من معلومات وترتيب الاسماء من حيث الصدارة في الكلام وغيرها. بحيث غطّت كل العلامات الموجودة في تلك الكتب المدروسة والتي خضعت للتحليل الثقافي. ومن خلال المبحث اتضح لدينا أن السلطاني يتجه برؤيته إلى استخلاص الأنساق الظاهرة ثم التفتيش عن

الأنساق المضمرة، سواء تلك التي حرّكت الخطاب التربوي وهي موجودة في اذهان وثقافة الذين وضعوا ستراتيجية التعليم أو المؤلفين الذين ألّفوا الكتب أو في أذهان وثقافة الأدباء الذين اختاروا من أدبهم. وهو لم يكتف بالأنساق المضمرة التي حرّكت هؤلاء جميعا وإنّما فتّش في الأنساق المضمرة التي حملها ذلك الخطاب التربوي. والسلطاني بهذا يسير على ما قدّمه من تصوّر نظري عن النسق المضمر في النقد الثقافي. فهو عنده نسقان: نسق مضمر محرّك للخطاب ونسق مضمر محمول في الخطاب. و" يكون النقد الثقافي مسؤولاً عن نمطين من الأنساق المخفية، وليس عن نمط واحد. وهذا هو الرهان الأول الذي يحمله هذا الكتاب. فغايته أنْ يوسّع النظر في الأنساق المخفية فلا يقتصر على المضمرة المحمولة في الخطاب وإنّما يفتّش، أيضاً، عن المخفية المسؤولة والمحرِّكة." [٦٠]. فالنقد الثقافي بطبيعته وباهدافه التي جاء من اجلها ليكون ضمن النقدية الحديثة له " أن يشتغل على مختلف الأنساق المخفيّة بنوعيها المضمرة التي يحملها الخطاب، والمحركة القارة في اللاوعي الثقافي"[٦١].

وهو في تحليلة ركّز كثيرا على دور اللغة في نقل الثقافة وفي ترسيخها في أذهان الطلبة والمجتمع عامة، ودورها في صنع الثقافة أصلا. وهذا أمر علمي مهم وكبير فاللغة اصلا تبني عقل الانسان نفسه وهي مسؤولة عن الوعي واللاوعي ايضا.

أما النتائج التي توصّل إليها السلطاني من خلال بحثه الثقافي التحليلي فهي نتائج علمية مهمّة ومحدّدة ومقنعة، جاءت بعد تحليل وأدلة مقنعة للقارئ، وليس إنشائيات يسوقها متلاعبا باللغة كما نجده في كثير من الكتب المصنّفة على أنّها ضمن النقد الثقافي. لذلك يمكننا القول إنّها دراسة ناضجة ضمن النقد الثقافي حين يكون أقرب إلى التحليل النقدي العلمي المستند على الإحصاءات والتحليل.

الهوامش:

[١] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي ، عبد العظيم السلطاني : ١١٥.

[٢] – المصدر نفسه: ١١٥.

[٣] – المصدر نفسه: ١٦١.

[٤] – أسئلة النقد النسوي بين المضمر والظاهر في رواية "بوابة الذكريات " لآسيا جبار – مقاربة في النقد الثقافي ، مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، بثينة سلطاني وفادية بوحبيلة ، إشراف الأستاذة زوليخة زيتون، ٢٠٢١، ٩.

[٥] – ينظر: المعوقات الثقافية للمشاركة السياسية للمرأة في المجتمعات العربية، محمد خشمون، أعمال المؤتمر الدولي السابع: المرأة والسلم الأهلي، ٨.

[٦] – ينظر: النقد النسوي والإبداع ، سحر سامي ، رابطة الأدب الحديث ، ج١١٤ ، ٢٠١٧ : ١٠٠_١٠١.

[٧] – النظرية والنقد الثقافي الكتابة العربية في عالم متغيرة واقعها، سياقها، وبناها الشعورية، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، ٢٠٠٥ : ١٢٨.

[٨] – ينظر : النسوية مفاهيم وقضايا ،مي الرحباني ، الرحبة للنشر والتوزيع ط١ ،٢٠١٤: ٢٨_٢٩.

[٩] – ينظر : الخطاب التربوي البادیسي: قراءة في المجهود والمردود، عمیار العیاشي، اتحاد الكتاب العرب: ١٣٨.

[١٠] – دلالات مضمون الخطاب التربوي التشريع التربوي نموذجا، د وشنان حكيمة وأ. مليحي نجاة ،جامعة زيان عاشور الجفلة، مجلة تاريخ العلوم، ع٧ ،٢٠١٧، :٢٣٦.

[١١] – تفتيش العمل والمساواة بين الجنسين وعدم التمييز في الدول العربية، منظمة العمل الدولية المكتب الاقليمي للدول العربية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ٢٧.

[١٢] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي: ١١٦ .

[١٣] – ينظر المصدر نفسه: ١٣٦.

[١٤] – ينظر: المرأة واللغة، عبد الله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣ ، ٢٠٠٦ : ١٠.

[١٥]– معوقات تمكين المرأة في المجتمع العراقي، دراسة ميدانية في جامعة القادسية ،ثائر رحيم كاظم ، جامعة القادسية/كلية الآداب :٤.

[١٦] – الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته ، سمر أيوب ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، العراق ، ٢٠١٧، :١٠.

[١٧] – المصدر نفسه : ١٠.

[١٨] – الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، الدكتورة سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، . وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٩، : ٤

* – الديالكتيك هو علم دراسة الأضداد الموجودة في الأشياء، ومحاولة فهمها، وإيجاد حلول لها

[١٩] – الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته : ٣٦

[٢٠] – ينظر نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٥٢

[٢١] – المصدر نفسه: ١٢٧.

[٢٢] – المصدر نفسه: ١٣٠ .

[٢٣] – المصدر نفسه : ١١٩.

[٢٤] – ينظر المصدر نفسه : ١٥٤.

[٢٥] – الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته : ١٩.

[٢٦] – ينظر نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٢٠.

[٢٧] – المصدر نفسه : ١٢٥.

[٢٨] – المصدر نفسه: ١١٧.

[٢٩] – الصورة التلفزيونية والتحليل السيميائي ،سامية عواج، مجلة الحكمة ، ع٢٣ ، ٢٠١٣ : ٢٨٠.

[٣٠] – دور الصورة الفوتوغرافية في توثيق حياة عمان القديمة في النصف الأول من القرن العشرين، الشقران، قاسم عبدالكريم خميس، مجلة بحوث في العلوم والفنون النوعية .جامعة الأسكندرية – كلية التربية النوعية، ع ٦ ، ٢٠١٦ : ٣ .

[٣١]– ينظر: نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٥٧

[٣٢]– المصدر نفسه :١٦٠

[٣٣] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٣١.

[٣٤] – ينظر المصدر نفسه : ١٣١–١٣٢

[٣٥] – ينظر: المصدر نفسه: ١٣٤

[٣٦] – ينظر المصدر نفسه: ١٣١–١٥١.

[٣٧] – المصدر نفسه: ١٣٦

[٣٨] – المصدر نفسه : ١٣٦.

[٣٩]– مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، ج٤ : ٢٨٨.

[٤٠] – قضايا التغليب بين اللغويين والنحاة دراسة في ضوء علم اللغة الاجتماعي ، أشرف محروس نور زاهر ، مجلة كلية الآداب، ع٩ ، ٢٠١٧ : ٢٥٦.

[٤١] – ينظر: نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي:١٤٣.

[٤٢] – المصدر نفسه: ١٤٠.

[٤٣] – ينظر المصدر نفسه : ١٣٧.

[٤٤] – المصدر نفسه : ١٣٧.

[٤٥] – ينظر المصدر نفسه: ١٦٧.

[٤٦] – ثقافة الوهم : ٩٧.

[٤٧] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٧٤.

[٤٨] – ينظر المصدر نفسه: ١٠٨ .

[٤٩] – من النسق الثقافي إلى النسق الشعري: إعلان موت المرأة في الشعر العراقي الحديث، حسن عبد عودة الخاقاني، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع٢٥، ٢٠١٧ : ١١٣.

[٥٠] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٨٥.

[٥١] – من النسق الثقافي إلى النسق الشعري: إعلان موت المرأة في الشعر العراقي الحديث : ١١٣.

[٥٢] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي: ١٨٦.

[٥٣] – ينظر نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي: ١٨٣–١٨٧

[٥٤] – المصدر نفسه: ١٨٧–١٨٨.

[٥٥] – مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب ، أ. د. حفناوي رشيد بعلي، المكتبة الوطنية ، ط١، ٢٠١١، عمان : ١٥١.

[٥٦] – المرأة واللغة :٢٠_٢١.

[٥٧] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي: ١٥١ .

[٥٨] – الاحصاء في البحث العلمي، https://www.bts-academy.com

[٥٩] – ينظر: نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي : ١٤٨–١٥٠.

[٦٠] – نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي: ١٤.

[٦١] – المصدر نفسه: ٣٥

المصادر والمراجع

– الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، الدكتورة سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، . وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٩،.

_أسئلة النقد النسوي بين المضمر والظاهر في رواية "بوابة الذكريات " لآسيا جبار – مقاربة في النقد الثقافي ، مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، بثينة سلطاني وفادية بوحبيلة ، إشراف الأستاذة زوليخة زيتون، ٢٠٢١

_دور الصورة الفوتوغرافية في توثيق حياة عمان القديمة في النصف الأول من القرن العشرين، الشقران، قاسم عبدالكريم خميس، مجلة بحوث في العلوم والفنون النوعية .جامعة الأسكندرية – كلية التربية النوعية، ع ٦ ، ٢٠١٦

_الصورة التلفزيونية والتحليل السيميائي ،سامية عواج، مجلة الحكمة ، ع٢٣ ، ٢٠١٣

–قضايا التغليب بين اللغويين والنحاة دراسة في ضوء علم اللغة الاجتماعي ، أشرف محروس نور زاهر ، مجلة كلية الآداب، ع٩ ،

–مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب ، أ. د. حفناوي رشيد بعلي، المكتبة الوطنية ، ط١، ٢٠١١، عمان : ١٥١

–المعوقات الثقافية للمشاركة السياسية للمرأة في المجتمعات العربية، محمد خشمون، أعمال المؤتمر الدولي السابع: المرأة والسلم الأهلي

–من النسق الثقافي إلى النسق الشعري: إعلان موت المرأة في الشعر العراقي الحديث، حسن عبد عودة الخاقاني، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع٢٥، ٢٠١٧

–النسوية مفاهيم وقضايا ،مي الرحباني ، الرحبة للنشر والتوزيع ط١ ،٢٠١٤

–النظرية والنقد الثقافي الكتابة العربية في عالم متغيرة واقعها، سياقها، وبناها الشعورية، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، ٢٠٠٥

–النقد النسوي والإبداع ، سحر سامي ، رابطة الأدب الحديث ، ج١١٤ ، ٢٠١٧

–نقد النقد الثقافي– رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي ، عبد العظيم السلطاني : ١١٥.